الأدب الإسلامي ومناهج النقد الأدبي المعاصرة

بقلم: د. سعد أبو الرضا

تعددت مناهج النقد المعاصرة ما بين بنيوية وأسلوبية وسيميائية وتلق وتفكيكية وعلم النص وغيرها، وكلها تركز في دراستها على النص ولغتّه مستثمرة نتائج الدراسات اللغوية قديمها وحديثها، في محاولة الكشف عن النص وبنيته، وهذا هدف عام يجمع بينها، بعد أن غلب عليها إلغاء خارج النص، خاصة المبدع الذي كتبت هذه المناهج شهادة وفاته، بالإضافة إلى عدم اعتدادها بما وراء الواقع من غيبيات، لكنها تتباين فيما بينها من حيث الموقف من المتلقي، إذ تعتد به معظم هذه المناهج المعاصرة اعتداداً مقبولاً، على اختلاف بينها في مستويات الكشف عن المعنى، وهي ترى تعدده.

وعند هذا الحد قد تلتقي مع أصحاب النقد الجديد في أمريكا، إذ يرى هؤلاء جميعا أن النص بنية مغلقة على أساس ذلك، لكن التفكيكية قد تجاوزت هذا التصور عندما رأت أن النص بنية مفتوحة، ومن ثم فقد انتهت بناء على ذلك إلى فكرة لا نهائية المعنى، وهي من وجهة نظر التفكيكيين مقبولة بناء على ما يرونه من الفجوة بين الدال والمدلول التي يترتب عليها انزلاق الدلالة تحت الدال..إلخ، هذا التصور الذي يسمح لهم باللعب بالدوال، ومن ثم لانهائية المعنى،

بالإضافة إلى فكرة الحضور والغياب في هذا المجال.

لكن مثل هذا التصور يوقعنا في الفوضى بالنسبة للمعنى، عندما ترى التفكيكية أن كل معنى إساءة للمعنى السابق عليه.

والأدب الإسلامي ونقده يحاولان الاستفادة من بعض ما سبق خاصة فكرة تعدد المعنى، لما في ذلك من اتساع الدلالة، التي تكشف عن ثراء النص، وإذا كانت بعض المناهج السابقة قد تهتم مثلا بنحو النص كالبنيوية، أو الكشف عن رؤية العالم كالبنيوية التكوينية، مما يجعل القيمة الجمالية قد تختفي وراء ذلك فإن الأدب الإسلامي ونقده حريصان على تجلي هذه القيمة بمقوماتها الفنية.

وتهتم هذه المناهج جميعها بفكرة «الاقتراض» (التناص) لدرجة جعلت التفكيكية مثلا لا ترى النص الماثل إلا في سياق النصوص الأخرى التي يعد رمادها من مكوناته، ومن أهم عناصر تشكيله، وكذلك نجد الأدب الإسلامي حريصا على إبراز هذه العلاقة، وتتبع آثارها في النص الماثل بصور مختلفة، منها أفق التوقع مثلا، لكن دون اختفاء خصوصية النص الماثل.

وأمام ذلك يتضح اعتدال وجهة نظر الأدب الإسلامي ونقده أولا في اعتداده بخارج النص، الذي يمكن أن يسهم في الكشف عن المعنى، والاعتداد في الوقت نفسه بدور المبدع وأثره، خاصة في النصوص المقدسة.

وإذا كانت هذه المناهج النقدية الحداثية، مادية النظرة في اهتمامها بالواقع فحسب، فإن الأدب الإسلامي ونقده يهتم بما وراء الواقع، خاصة في علاقة الإنسان بالله سبحانه وتعالى، وتجليات ذلك في العمل الأدبي.

وهكذا نرى تميز الأدب الإسلامي ونقده الذي يهتم بصالح التراث، ويستفيد منه، كما يستفيد من المتغيرات متمثلة في هذه المناهج الحداثية وغيرها من العلوم الإنسانية المختلفة، في الحدود التي يقبلها الشرع.